تفريغ المجلس (٠٢٦)

"تتمة الباب السادس في ذكر الرومان وحكومتهم بالجزائر:

١١ - جمهورية المدن الخمس ج٢. / ١٢ - الحياة الرومانية بالجزائر.[١]).

٤ - المرشدون: يقومون بإرشاد العامة إلى رجوه عبادتها، وكل كبير أسرة يعتبر مرشدا لأسرته، وهذا في نفسه حسن، فقد قال - صلى الله عليه وسلم -: "فالرجل راع على أهله وهو مسؤول عنهم"[٢].

---

[١] إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لهن وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد: فنواصل قراءتنا هذا الكتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" انتهينا عند كلام المؤلف في ذكر أقسام رجال الدين في الباب السادس في حكم الرومان في الجزائر، قال (**وكما كان لسياسة هذه الجمهورية رجال كان لديانتها أيضا رجال، وهم أقسام**) القائمون على الهيكل، والعرافون الذين يتكلمون رجما بالغيب ويزعمون ذلك، وقبلهم المراقبون للأعمال الدينية أينما كانت، وتوقفنا عند الرابع.

[٢] هنا رواية الحديث من المؤلف بالمعنى، قال ﷺ في حديث ابن عمر في الصحيحين (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل في بيته راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راع وهي مسؤولة عن رعيتها، والعبد في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته، وكلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته).

هؤلاء رجال الدين عندهم، رجال الدين في ديننا دين الإسلام، فالواجب على كل مسلم ومسلمة أن يلتزم بهذا الدين، وأن يقبله، وأن لا يكون كحال أهل الكتاب الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، أو يؤمنون أول النهار ويكفرون آخره، ويؤمنون آخره ويكفرون أوله، الواجب على المسلم أن يكون متمسكا آخذا بزمام هذا الدين يأخذه بكل أحكامه، يلتزم بدين الله ﷺ كما قال ربنا تبارك وتعالى {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ}هود١١٢، وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا..}فصلت٣٠، وقال ﷺ للذي جاء يسأله عن عمل يدخله الجنة (قل آمنت بالله ثم استقم) [صحيح مسلم ٣٨] فكلٌّ مطالب بأن يلتزم، وينضبط بأحكام الشريعة، من أوامر ونواهي، ومستحبات ومكروهات، فالمطلوب فعله يأتي به، والمطلوب تركه يتركه.

ولعنايتهم بالسياسة عنايتهم بالدين كانت دار الأمارة حيث هيكل الإله العظيم "جوبتير"[1]. ومكانها بموضع القصبة اليوم[2]. وهي بذلك الموضع من لدن الملوك النوميديين.

قال بارس: "وهي معمورة بالذخائر، وقد وجدت قطع رخامية تشتمل على حصر تلك الذخائر، عثر عليها عندما أراد الأتراك بناء قشلتهم[3]، وقيمة هذه الذخائر مناسبة لما كانت عليه قرطة من الثروة والرفاهية، ثم أخذ في تعدادها، ولكثرتها اكتفينا بالإشارة إليها محيلين محب الاطلاع على أشخاصها على كتاب قرطة (CIRTA)

وقد كان السكان في هذه الجمهورية على طبقتين: أهل الحقوق وغيرهم. الأولون هم من كانت لهم حقوق أصالة أو وراثة أو منحتهم بلديتهم ذلك تشريفا لهم أو تبناهم أهل الحقوق أصالة. والأخيرون هم الأجانب الذين استقروا بوجه نهائي بمدينة من المدن، وهناك طبقة لا حقوق لها أصلا وهم الأجانب الذين يحلون بالمدينة حلولا مؤقتا من تجار وطلبة علم وعابري سبيل.

وأما كونه في الدين رجال أو رجال الدين، نحن عندنا في الإسلام العلماء، ومن يتبع العلماء غير العلماء، فالله ﷻ قال {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}النحل٤٣، فبالنظر إلى عموم الناس، وعموم المسلمين فهم على قسمين: علماء وغير علماء، فغير العالم يسأل، والعالم يجيب، والعلماء مراتب وتخصصات، ففيه المجتهد المطلق، والمجتهد المستقل، وقيل هما بمعنى واحد، وقيل بالفرق بينهما، وفيه المجتهد المقيد، وفيه مجتهد المذهب، وفيه مجتهد التخريج، فهو مراتب، وهناك تخصصات أيضا، تخصص في الفقه، في التفسير، في الحديث، في الأصول، على مراتب، فمن هذا الباب عندنا علماء، ومن ليس بعالم، والعلماء مراتب، وإنما هم لهم هذا اللقب لكونهم أهل اجتهاد، وأهل اختصاص في العلم.

أما من حيث النظام فقد يجعل النظام بأن يُخص جمع من العلماء للفتوى، وجمع للقضاء، ونظام للحسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا قد يكون في نظام الدولة المسلمة، فتجعل الفتوى للعلماء، وأناس مخصوصين، فهم الذين يرجع إليهم في الفتوى لتنتظم أمور الناس وتستقر، خاصة في المسائل التي يكون فيها القضاء وفصل الخصومات والنزاعات، فهذا الذي عندنا في دين الإسلام.

[1] هذا مر معنا وهو من آلهتهم، ومن الخطأ تسمية أشياء باسم هذا الإله، وبعضهم يسمي عصيرا "جوبيتار" والأولى أن ينصح ويغير هذا الاسم.

[2] هذا الهيكل العظيم.

[3] يعني مكان الجند، وهذه الكلمة ليست عربية.

وفي كل خمس سنوات يعاد تقييد أهل الحقوق وضبط أملاكهم وتجديد النظر في المغارم.

وكانت الطبقتان كلتاهما تتحملان الواجبات البلدية على السواء، وتختص الطبقة الأولى بأن عليها واجبات:

١ - القيام بالبريد[١] والطرق.

٢ - استخلاص الغرامات وأداؤها.

٣ - نفقات الوفود التي توجه إلى رومة.

٤ - ترميم المعابد البلدية.

٥ - التبرع على المشاريع البلدية، مثل التمثيل.

القائمون بهذه الواجبات متمتعون بالحقوق السياسية تماما. وينتخب منهم في كل عمارة[٢] عشرة. ثم يجتمع هؤلاء المنتخبون في مجلس أعلى يكون هو الممثل للأمة، فيتولى جميع شؤونها من تسمية وعزل. وأصحاب هذا المجلس أنفسهم على طبقات مرتبة حسبما يلي:

١ - طبقة الديكريون: يختارهم الحكام (الرجال الثلاثة) من أماثل المنتخبين.

---

[١] نقل المعلومات، وهذا جعله عمر في زمنه ﷺ وهو من أوائل من جعل ذلك، يعني نقل المعلومات حتى تنتقل سريعا، فيُجعل من البلدة التي يخرج منها الخبر، يخرج الفارس بجواده وينتظره الآخر مسافة بريد، والبريد قدر ثلاثة فراسخ، والفرسخ قدر ثلاثة أميال، فثلاثة أميال في ثلاثة فراسخ تعطيك تسع أميال، الميل ما بين ١ كيلومتر و٦٠٠، و ١ كيلومتر ٨٠٠، تقريبا ٢ كيلو، يعني ١٨ كيلومتر يكون فارس ينتظر الآخر، فيخرج هذا ويقطع مسافة بريد، ليجد الفارس الآخر ينتظر فيسلمه الورقة أو الخبر فينطلق إلى آخر حتى يصل الخبر في أسرع ما يكون، فسمي نقل الأخبار بهذه الطريقة بريدا، نسبة إلى المسافة التي كانت تحدد أول الأمر لنقل الخبر من مكان إلى مكان، والآن يسمونها مصلحة البريد والمواصلات، جاء البريد من هذا، ومن أوائل من فعله في الدولة الإسلامية عمر ﷺ، فكان الخبر يصل سريعا، إذا احتاج الخبر من المدينة إلى الشام متى سيصل؟ ومن مكة إلى المدينة مسيرة تسعة أيام فالخبر يتأخر كثيرا، فعندنا هذا البريد به يصل الخبر في يومين تقريبا.

[٢] من الترتب لجماعات الناس، عندنا القبيلة والبطن والفخذ، وعند غير العرب الشعب والعشيرة وفيها طبقة العمارة، يعني طبقة تجمع جماعة من الناس.

٢ - طبقة العظماء: وهم من كان عضوا بمجلس الشيوخ أو قائد جيش بلغ درجة تسمح له بالركوب.

٣ - لجنة الأعضاء الخمسة: وهم من كان له مرتبة أهل الطبقة الثانية غير أنه لم يكن من العظماء السادة[١].

٤ - العرافون.

٥ - رجال الشرطة.

٦ - أمناء المال البلدي.

ويشترط فيمن يكون عضوا بهذا المجلس زيادة على كونه من أهل الحقوق:

١ - أن يكون نظيف السيرة[٢].

---

[١] هذا الترتيب وهذا النظام فيه تطلع، هذا في العهد الأول كيف كانوا، وكل النظم الموجودة هي مترتبة على نظم سابقة، لهذا غالب أمور الناس فيها شيء من التطور والتغير، حتى في اللغات، تجد أصل اللغات العصرية الآن تنتهي إلى لغات قديمة، وقد حصل فيها تغير وتطور، عدا اللغة العربية التي هي الأصل، وهي لغة عظيمة جدا، كما قال بعض العلماء، فما كان يقوله امرؤ القيس قديما، وما كانوا يقولونه قبل البعثة وفي زمن الجاهلية لا يزال محفوظا إلى الآن في نفس المكان، وبنفس الألفاظ، ويتداول، وهو من الكلام الدارج في لغة العرب، ويقرأه أهل العربية ويفهمونه على ذلك الفهم، بخلاف اللغات الأخرى، فهذا النظام في كل فترة زمنية يتغير ويتطور إلى أن انتهى إلى ما عليه الناس الآن.

[٢] نقيا معروفا بسيرة سليمة ليس فيه شبهة ولا مطعن، وهذا الذي ينبغي أن يكون عند المسلمين، ولقد ضرب الصحابة الكرام لنا مثلا عظيما بعد النبي ﷺ وكيف كانت إدارتهم لدولة الإسلام، مع ترامي أقطارها وشساعة أراضيها، وبعد المسافة ما بين مركز الحكم الذي كان في الزمن الصحابة بالمدينة كأبي بكر وعمر وعثمان، ثم انتقل للكوفة، ثم إلى الشام، ثم إلى مصر، يعني توارد على مناطق كثيرة، فكانت لهم سيرة في هذا الباب عظيمة، فمن يجعلونه أميرا على منطقة لا يبقى عليها زمنا طويلا، ثلاث سنوات أربع سنوات، خمس عشر سنوات يغيّر، وينقل إلى مكان آخر، ولا يجعلون من كان فيه مطعنا، ومن كان فيهم له مال زائد يحاسب عليه، أبو هريرة رضي الله عنه جعل بأمر الشام، فلما جاء قيل له: من أين لك هذا المال؟ كان رضي الله عنه يخرج ويجاهد ويقاتل وكانت تأتي المغانم فيأخذ حظه منها، فوفّر مالا، فلما حوسب بيّن، قال: هذا من كذا وهذا من كذا، ثم احتيج إليه أن يتأمر مرة أخرى فقال لا أرجع، حتى لا يضع نفسه موضع تهمة فيحاسب على المال الذي عنده.

٢ - أن يكون ذا مال يختلف تقديره حسب القانون الأساسي.

٣ - أن يكون عمره (٣٠) سنة ثم خفض إلى (٢٥).

وظيفة الديكريون يمنحه صاحب طول حياته ما دام حائزا على شروطها، وعددهم غالبا مائة وقد يزيد أو ينقص، ومنهم قسم يحافظون على الاعمال الدينية وعددهم أربعة عشر.

وعمر ﷺ في زمنه طعنوا في سعد بن أبي وقاص بالكوفة، جاءت عمر ﷺ شكوى من بعض أهل الكوفة يشتكون سعدا، فأرسل عمر أحدهم إلى الكوفة ليسأل، فسأل وأثنوا عليه بخير، ثم دخل مسجدا وسأل، فقام أحدهم وقال: أما إنك قد سألت فإن سعدا لا يعدل في القضية ولا يمشي بالسوية ولا يخرج في السرية، فرجع وقال عمر ﷺ لسعد: طعنوا فيك حتى في صلاتك، قال: أما أنا يا أمير المؤمنين فإني أرقد في الأوليين، وأخفّ في الأخريين، قال **(ذلك الظن بك يا سعد)** يعني ما طعن فيه عمر، ولهذا لما قتل عمر ﷺ جعل المشورة في ستة ومنهم سعد بن أبي وقاص، قال **(أما إني لم أعزله طعنا فيه)**، ولكن لما تكلم بعضهم حتى لا يكون هناك ثغر فعزله وجعل مكانه غيره، لكن لم يكن يعتقد في سعد أي طعن، ولكن ما دام تكلم بعض الناس، ومن في قلبه شيء، قال له: ايت المدينة فلما جاء قال له: انظر ماذا تكلموا، قال: يا أمير المؤمنين أما أنا فأفعل كيت وكيت، قال ذلك الظن بك، وسعد من العشرة المبشرين بالجنة، وهو من السباقين إلى الإسلام، له ست من الولد ضمنهم بنت كلهم يروي عنه الحديث، وخرج له في الصحيح ﷺ.

الحاصل أنه لما تكلم بعض الناس بشيء لكن حتى لا تكون هناك إثارة فعزله ف ودعا سعد وقال **(اللَّهُمَّ إن كان هذا الذي تكلم قام مقام سمعة)** يعني تكلم ليس تدينا، كما يفعل بعض الناس، يتكلم في غيره ليس تدينا، انظر إلى دقة سعد بن أبي وقاص ﷺ بل وسلامة صدره، يعني إن كان هذا الرجل قال لك يارب ورأى ذلك وأخطأ فلا يشمله الدعاء، لكن إذا كان قام ليس لله خالصا، ويريد فقط الكلام في سعد والطعن وتأليب الناس عليه **(فأطل عمره واعمِ بصره وعرضه للفتن)** فطال عمره حتى سقط حاجباه على عينيه، وفقد البصر، **(وعرضه للفتن)** فقيل ما شيخوخته كانت إذا مرت به الفتاة غمزها، فيقال له: كيف وأنت هكذا قال: ماذا أفعل مفتون. أصابته دعوة سعد.

الحاصل أنهم قد يختارون من كان حسن السيرة، يعني ليس بمطعون، وهكذا الواجب أن تجعل المناصب لمن كان نظيف السيرة، ليس لمتسخ السيرة، تغلف عنه وتغطي، هذا لا يجعل الناس تطمئن لهؤلاء، الواجب أن يكون صاحب سيرة نظيفة ليس فيه مطعن، هؤلاء في الغالب تجده هاربا من المنصب، يفر منه، وهكذا كانت الأمور في دولة الإسلام أولا، كان أمير المؤمنين وخليفة المسلمين يبحث عمن يجعله في فتوى، وقضاء ..الخ ويفرون ورعا، سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ كان مبحوثا عنه، خرجت ورقت البحث من أجل ماذا؟ طلب للقضاء ولم يرد، يقول أمير المؤمنين في ذاك الزمن: إذا كنتم أنتم من يقوم بهذا فمن يقوم! وأنتم أهل نزاهة ونقاوة وورع وتقوى، لكن يفرون من القضاء، أصحاب هذه الصفات يفرون من المناصب، لكن الواجب البحث عنهم وإلزامهم.

ولكون هذه الطبقة أعلى طبقة بالمجلس لا يصح شيء من أعماله الا بحضور عدد منهم. وأعمال هذا المجلس هي:

١ – تسمية التوظفين على اختلاف طبقاتهم بعد انتخاب الامة.

٢ – منح لقب "مولى" (السيد) لمن كانت له أعمال جليدة اشتهر بها.

٣ – تهيئة أعضاء الوفود التي ترسل إلى رومة للاعراب عن جور بعض الولاة.

٤ – تعيين من يرأس جمعية الديانات الاجنبية.

٥ – تجهيز الجيوش عند الاقتضاء.

٦ – تعيين مقادير التبرعات الدينية.

٧ – تحديد مقادير الضرائب البلدية.

٨ – تنظيم الحالة المالية.

٩ – محاسبة من كلف بشأن عام من طرف المجلس.

١٠ – تعيين لجنة تشتغل ببيان دخل المدينة وخرجها.

١١ – النظر في البناءات هدما وتعميرا.

١٢ – الأمر بمطالبة من هو مدين للمدينة.

١٣ – تعيين أيام المواسم.

١٤ – الأمر بالألعاب العمومية مع تكليف من يتولى تنظيمها.

١٥ – الحكم النهائي فيما يتعلق بتحرير الأرقاء وأرش التعديات[١].

١٦ – إمداد أهل الوظائف الخاصة بالنفوذ.

هذا نظام جمهورية المدن الخمس السياسي والديني، قال بارس (VARS) في كتاب قرطة: "وقد كانت قرطة قرار نظام كاد يكون منفردا في امبراطورية رومة"، وكانت علاقة هذه الجمهورية مع إمبراطورية رومة أشبه شيء بعلاقة الحامي مع المحتمي بأشرف معنى للحماية[٢]، بل عبر عنها بعضهم بمملكة. وكان

---

[١] هو المال الذي يطالب ومقابلة نقص مصيبة وقعت لشخص أو ضرب.

[٢] الذي يحمي والآخر هو المحمي.

مبعوثوا الإمبراطور للتجول في هذه الجمهورية واستطلاع أحوالها لا يتخذون شعارا يميزهم، ولم يكن للإمبراطور يد في نظام هذه الجمهورية الداخلي مدة اتحادها.

ولحسن هذا النظام عاش السكان تحته عيشة راضية وترقى الوطن ترقيا عظيما وارتفع شأنه في الحضارة والعمران[1]، وتقدمت به العلوم والفنون والآداب. ونحن نثبت أبياتا قالها صائغ بقرطة لتنقش على قبره وهي باللطينية، وهاك تعريبها من غير تصرف:

"أنا المستحيل علي الكلام الآن أقص عليك حياتي في هذه الابيات:

تمتعت طويلا بالضوء النير وكنت "برسليوس" الصائغ بقرطة

صفاء طويتي يضرب به المثل وكنت دائما صادق القول

كان ما عندي للجميع ومن ذا الذي لم أشفق عليه

---

[1] كلما كان النظام ممتازا وثابتا مستقرا كلما كان العطاء من الناس أكثر، وهذه ميزة كثير من دول الإسلام، التاريخ الإسلامي سيأتينا إن شاء الله، فكان في ظل نظام الإسلام والمسلمين، وجود الكثير من الأعمال، واختراع كثير من الأشياء، لم تكن عند الدول الأخرى، وعند دول غير الإسلام، لكون النظام الذي كان نظاما إسلاميا يوفر الاستقرار، والأمن، واستتباب الأمر، ويفتح أبوابا للتعلم، والطلب، والتقدم ، والتطور، والبحث في مكنون هذا الخلق، والكون الذي خلقه الله لنا وقد قال ﷻ {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ...}البقرة٢٩، سخره لكم، فما استطعتم منه أن تستفيدوا فاستفيدوا، بشرط عدم الخروج من الحدود الشرعية.

فكان للمسلمين من الاختراعات والإبداعات الشيء الكثير، العظيم، خاصة في نهاية الدولة الأموية والدولة العباسية على طولها في جميع المجالات، الفلك والطب والكيمياء والصناعات، والعلوم الميكانيكية، فالساعة مشهورة في الدولة العباسية، وإن كانت ضخمة قدر غرفة، وقد أرسل بها الحاكم العباسي في ذلك الزمان لبعض ملوك أوربا، حال الساعة عجيب كانت تدقق الوقت بدقة، فإذا كانت الساعة ١,٠٠ يفتح باب واحد ويخرج فارس وتنزل مطرقة من فوق على حديدة وتضرب مرة واحدة، الساعة ٢,٠٠ يفتح بابان فيخرج فارسان، وتنزل المطرقة فضرب مرتين، والساعة ٣,٠٠، و ٤,٠٠، و ٥,٠٠، حتى الساعة ١٢,٠٠، يخرج ١٢ فارسا وتدق المطرقة ١٢ مرة، ثم الساعة ١,٠٠ وهكذا، وأرسلت إليهم، لما سمع بها القساوسة قالوا: هذا شيء عجيب، فتركوها حتى نام الناس ليلا وظنوا أن بها جن، فاجتمعوا عليها بالمطارق وكسّروها على آخرها، وبعث ملكهم رسالة اعتذار إلى الدولة العباسية وقال: نعتذر على هذا التصرف منهم، وبعد زمن أرسل إليه أخرى.

وهذا في مجالات كثيرة، فهذا النظام إذا كان الأمر مستتبا، يتيح إلى البحث والإبداع في مجالات كثيرة، أما إذا كان الهرج، والقتل، وعدم الأمن، والخوف، والاعتداء، ويصير الواحد يبحث عن معاشه فقط، فأنى للناس أن تبدع.

دائم الابتسام تمنيت دواما مع أحبائي في حياة مترفة

وبعد وفاة العفيفة الصاحبة "فليريه" لم أجد مثلها

\واحتفلت- بكل احترام- مائة مرة بعيد ازديادي

ولكن أتى اليوم الأخير الذي فيه تغادر الروح الجثمان البالي

وهذه الكتابة التي أنت قارئها قد هيأتها أثناء حياتي لمماتي

التي أتاحها لي الحظ، وطالما رافقتي ولم يهملني

فاقف أثري واتل سبيلي على ما كانت عليه ثم ائتني فها أنا ذا منتظرك هنا"[1].

بلغ الناس في هذه الجمهورية مبلغا عظيما من البذخ والرفاهية حتى حدثت قرى صغرى وطلبت نوعا من الاستقلال، فأعانها على ذلك قياصرة رومة تفريقا للكلمة وحبا في النفوذ والاستبداد بالحكم وكان رجال الوظائف بعكس العامة ذهبت ثروتهم بسبب ما كان يثقل كاهلهم من النفقات البلدية[2].

فوجد قياصرة رومة في بذخ العامة وفقر الموظفين سبيلا للتدخل في أشقاء هذه الجمهورية. فصاروا يفرقون كلمتها بتلبية طلبات القرى الطامحة إلى الاستقلال، ويضعفون نفوذ مجلس الأمة بتعيين الموظفين القيصريين مكان من عجز من أهل الوظائف البلدية عن القيام بمأموريته لفقره حتى اضمحل المجلس ووزعت أعماله على نواب القياصرة وعمالهم.

وكان انحلال الاتحاد بين المدن في القرن الثالث، فإن ميلوم كانت تنازع قرطة في سيادتها وتجاريها في عظمتها حتى استقلت عنها وضمت إليها روسقاد وشولو[3]، وآخر من تولى رئاسة هذه المدن الثلاث رجل يدعى كمودس (COMMODUS) أصله من ميلة وكان أحد الرجال الثلاثة بقرطة أيام اتحاد المدن.

فلما استقلت ميلة عن قرطة وجمعت اليها تينك المدينتين تولي هذا الرجل رئاسة المدن الثلاث بميلة.

---

[1] يعني أنها تكتب على قبره.

[2] فهذه سياسة رومة، فرق تسد، يفرقونها إلى دويلات، حتى تبقى لها سلطة عليهم.

[3] القل.

بعد انحلال ذلك الاتحاد وتداخل اليد القيصرية ساءت الاحوال ونقص العمران وارتفع الأمن[1]. وما أصدق قوله تعالى: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} وبقيت قرطة لحصانتها محافظة على عظمتها حتى أن الوندال[2] لم يقووا على فتحها.

وكان بها كنيسة عظيمة للمسيحيين تخرج منها قسوس[3] كثيرون منهم دنتوس الذي أحدث في المسيحية مذهبا نسب إليه وضاد به الكنيسة الكاثوليكية وفاز عليها في جميع التراب الجزائري[4].

بقي لقرطة اسمها واستقلالها حتى ذهب الاثنان على يد قسطنطين سنة ٣١٢.

[1] إذا وجدت البلابل والقلاقل، وتبدأ الأفكار التي تثار بين الناس، ويروجها الغوغاء، والعامة، والدهماء، فيؤلبون الناس على غيرهم، وتنتشر الفوضى، ويرتفع الأمن.

[2] مزيج بين الألمان وغيرهم وسيأتي الكلام عليهم، دخلوا هذا البلد، وأمسكوا بزمامه فترة يسيرة ثم اندثروا.

[3] الأصول قساوسة.

[4] هذا أحدث في المسيحية مذهبا، والمسيحية مذاهب، فقد مر معنا في تفسير ابن كثير أن أغسطس -قسطنطين- جمع المدارس الثلاث: اليعقوبية، النسطورية، والإسرائيلية، جمعها فكان عندهم آلاف الآراء، فبدأوا يختصرون حتى خرجوا بما عليه الآن المسيحيون، على اختلاف مدارسهم، فبعد اجتماعهم وإلغاء الآراء، وكانت آلاف الآراء انتهوا إلى ما هم عليه الآن، إذن دينهم يصل إلى هذا الرجل الذي لم يكن أصلا صاحب دين، لكنه اتخذه تثبيتا لأمره، ولبلده، ولإمبراطوريته، ولملكه، وتدين به، لكن كانت فيه مسحة ولمسة، هذا دنتوس أحدث في المسيحية مذهبا وخالف الكاثوليكية، بل واستتب له الأمر في جميع التراب الجزائري.

[١٢ - الحياة الرومانية بالجزائر]

كان بالوطن الجزائري على عهد رومة طائفة من الرومان إلا أنها قليلة، ويوجد به عدد من الأجانب غير الرومان إلا أنه قليل جدا.

قال بيروني: يوجد بأفريقية في سنة (٢٠٠) نحو ٢٠٠ أو ٢٥٠ ألف روماني، وفي سنة (٤٠٠) تقريبا بلغ عدد الرومان نحو مليونين أو مليونين ونصف إلى ثلاثة ملايين، وهذا أكثر احصائية للرومان بأفريقية". وإحصاء بيروني هذا يريد به رومان طرابلس[١] وتونس والجزائر ومراكش، ومعلوم أن الاستعمار الروماني كان بطرابلس وتونس أوسع دائرة وأثبت قدما، وكلما تقدم إلى الغرب ضاق نطاقه وقل تأثيره[٢]. وإذا نقول أن حظ الجزائر من ذلك الإحصاء قليل، وهو بعمالة قسنطينة أكثر منه بعمالتي الجزائر ووهران.

قرطة كان بها عدد من الإيطاليان من عهد مصيبسا، ولما استولى ستيوس عليها وما يتبعها من الشمال النوميدي ترك بتلك النواحي جنودا بعضها من إيطاليا وبعضها من إسبانيا، وقد علمت أن يوليوس قيصر اشترط عليه أن يفتح أبواب مملكته في وجه الرومان ومن كان معه في حروب أفريقية. ولما اعتلى عرش رومة أكتافيوس الملقب أغسطس وجه جاليات من الرومان إلى موريطانيا: بعضها إلى قرطنه (تنس) وبعضها إلى رسقونيا (مطيفو) وبعضها إلى روصازو (أزفون) وبمفها إلى صلداي (بجاية) وإلى أجلجي (جيجل)[٣] وإلى زكبار (مليانة) وإلى تبوسكتو (تكلات). ثم أرسل إلى هذه المدن عساكر أكثرهم إيطاليون.

وعلى عهد قلوديوس (٤١ - ٥٤) ووسبسيان (٦٩ - ٧٩) أو نربا (٩٦ - ٩٨) تكونت جاليات أخر من قدماء الجند في "أبدوم نفوم" (المدينة الحديثة وهي وادي الدفلة) وفي مدوروس وفي سيطيفس.

---

[١] تسمى طرابلس ليبيا أو طرابلس الغرب، وطرابلس لبنان تسمى طرابلس المشرق. وفرق بينهما في الهمز، فالليبي يقال طرابلسي، واللبناني أطرابلسي.

[٢] كانت الجهة الشرقية أكثر تمكنا منها.

[٣] هذه أسماء قديمة وما تسمى عليه الآن، وهذا في الحقيقة جهد من الشيخ مبارك الميلي، لأنه ذكر أسماءها القديمة، ثم ما تحولت إليه، وهذا تطور الأسماء، تطورت إلى أن صارت إلى ما هي عليه.

وقد كان أكثر الرومان بالجزائر من أبناء قدماء الجند.

علمت سابقا أن الحياة الرومانية بإيطاليا كانت في غاية البساطة والسذاجة[1]: شظف في العيش وتقشف في الملبس وكد في العمل، وقد نقلنا لك- الفصل الخامس - كلمة كاطون منهم فيمن يوجد بتركته أنه ربح أكثر مما ورث.

وفيها ترى شدة عنايتهم بالثروة[2] وعجز وطنهم عن الوفاء برغبتهم، حتى صار يرى هذا الرجل أن سعة الثروة المكتسبة ليس لها طريق يفضي إليها البشر بفكره، وإنما ذلك إلهام من الآلهة خارج عن متناول العقول البشرية[3].

إن أمة هذه حالها لجدير بها أن تترامى على الأوطان الخصبة بكل ضراوة، وخليق بها أن تجد في تلك الأوطان ليل نهار لتثأر من الثروة التي عزت عليها في وطنها[4].

لذلك لما حل الرومان بالجزائر استولوا على كثير من الأراضي وقاموا بخدمتها أحسن قيام فمنحتهم أحسن النتائج، فراشوا بعد الفقر وبذخوا بعد الشظف وأصبحت الحياة غير الحياة.

بنوا المنازل الشاهقة ووسعوا نطاق المدن التي حلوا بها، فكانت قرطة تشتمل على مدينتين: داخلية يحيط بها سور، وخارجية وهي أوسع نطاقا. ومساحتها تمتد غربا إلى جنان الزيتون ومقبرة الإسلام، وجنوبا غربيا إلى قشلة باردوا، وشمالا إلى ضفة وادي الرمل الشمالية. قال بارس: "وذكر أبطات قديس ميلة: أنه كان ملاصقا لقرطة حارة عظيمة تدعى "موغاي"، والظاهر أنه المعروف اليوم بسيدي المبروك، وتمتد هذه الحارة إلى ناحية المنصورة"، إلى أن قال: "بضواحيها نزلات متقطعة، وقد عثر على آثار بعضها بناحية الحامة).

---

[1] ما فيها رفاهية كبيرة.

[2] يرون أن الغني هو الذي يأخذ من المال ويثري أكثر مما يرث.

[3] صار هذا حالهم، أن الغنى يكون من إلهام الآلهة.

[4] فسبيلها الاعتداء وأخذ أراضي غيرها.

وقد مر أن ميلة والسكيكدة والقل وجميلة كانت قرى صغيرة، ثم أصبحت مدنا عظيمة، ومن القرى التي عظمت على عهد الرومان وصارت مدنا: باغاية، مسكولة (خنشلة) لمبس، تمغادي، فتيرانروم (ديانة قدماء الجند) لمصبة (بالشمال الغربي من أوراس) جميلي، بادي (بادس).

والمدن التي كانت بالخط الصحراوي إنما رفع عمرانها الجند، لأن الجندي الروماني إذا لم تشغله الحرب فهو عامل نشيط.

والغرض من تأسيس المدن قرب مراكز الجنود المرابطة على الحدود المحافظة على تلك المراكز وتأمينها من روعات الهجمات الصحراوية.

والمدن الرومانية تنقسم خمسة أقسام:

١ - المدن البحرية وهي تجارية.

٢ - المدن العسكرية يسكنها الجنود، ولها أزقة[١] واسعة.

٣ - المدن الفلاحية، أكثر من يسكنها البربر العملة في أراضي السادة الرومانيين.

٤ - عواصم أولية وثانوية، سكنها كبار الولاة، وبناؤها أفخم وخيراتها أكثر وعمرانها أوسع.

٥ - مدن النزهة، وهي لاصطياف الأسر العظيمة. ومن هذه المدن جميلة. قال بيروني: كانت المدن الرومانية على غاية من الرقي في الحياة والعمران. تيمغادي كان بها من السكان (٣٥) الف: وأكثر المدن يبلغ عدد سكانه نحو عشرة آلاف، أو خمسة أو ستة إلى ثلاثين الفا. كل ذلك على سبيل التخمين[٢]. ولكل مدينة هيكلها الوثني أو كنيستها المسيحية[٣]. ولها أسواق وحمامات، ومنها ما فيها المراسح للتمثيل والملاعب لمصارعة الحيوانات الضارية.

والبريد سائر بين المدن، ومواقع المدن يراعى فيها وجود الماء ومناعة المكان[٤].

---

[١] الطريق الضيق.

[٢] التقريب.

[٣] لأن الآن صرنا إلى ما بعد الميلاد، فيه الكنائس.

[٤] يعني ليس فيه شيء من الوخم البيئي والجو والهواء، يختارون المكان للحياة.

المباني الرومانية ممتازة بالعظمة غير أنها خالية من الدقة وجمال الفن[١]، وفي كل مدينة ساحة عمومية للاجتماع تدعى: "الفوروم".

وكان من عادة الرومان إذا أرادوا تعمير مكان خطوا به خطين أحدهما من الشرق إلى الغرب والآخر من الشمال إلى الجنوب، ثم يجعلون شكلا مربعا حول نقطة التقاء الخطين، ويتخذون ذلك المربع ساحة للقرية (فوروم)، ويحيطون هذه الساحة بدكاكين وأقواس جميلة. والساحة هي المحل الذي تقام فيه الحفلات وتجري به الانتخابات وتقرأ به على الأمة القرارات[٢].

ومن محال الاجتماع عندهم الحمامات، ولهم عناية بها، قال بارس: "وكان بقرطة قرب دار الامارة التي هي المعبد العظيم حمامات عظمى، عرف آثارها سائح انكليزي ووصفها وذلك سنة ١٧٤٢ وماء الحمامات معدني".

ومن المباني التي يعتنون بشأنها المسارح والملاعب والهياكل الدينية، قال بارس: "وكل طريق توصل إلى كنيسة محفوفة بالتماثيل يمينا وشمالا، علاوة على ما في الكنيسة"[٣]. وقد عبث الدهر بتلك المباني الرومانية على عظهمتها، فلم يبق منها غير خرابات أكثرها مستور بطبقات التراب، قال غروت: "ولم يزل الباحثون يستكشفون مدنا تدهش أهل القرن العشرين"[٤].

---

[١] فيها رخومة لكن ليس فيها جمال الفن والدقة.

[٢] إذا جاؤوا إلى المكان، يخطون خطا من الشرق إلى الغرب، وخطا من الشمال إلى الجنوب، ثم يجعلون شكل المربع حول نقطة الالتقاء، فهو مكان الاجتماع، والحفلات، وقراءة القرارات. المسلمون كانوا إذا اختطوا قرية يجعلون هذا التدبير، أول ما تخط القرية مكان المسجد، ومكان السوق، وماكن الاجتماعات ونحو ذلك، هذه أمور مهمة.

[٣] أي من التماثيل بداخلها. ولم تكن ديانة ورسالة عيسى ﷺ ديانة وثنية صنمية، وإنما كانت ديانة توحيد، جاء بالتوحيد {وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ }مريم٣٦، كما قال ﷻ، فهم جاؤوا بعد ذلك وغيروا وبدلوا.

[٤] الآن فيه دراسات التنقيب، ينقبون عن الأماكن التي يرون فيها ويجدون آثارا، ويستخرجون ما يصلون إليه من نتائج.

لعلنا نقف عند هذا الحد، نكتفي بهذا والحمد لله رب العالمين.